الفصل الثالث

تأثير وسائل الإعلام ودورها

بعد دراسات مستفيضة توصل العالم (مارشال ماكلوهن) إلى نتائج قيمّة ، منها : أن وسائل الإعلام التي يستخدمها المجتمع أو يضطر إلى استخدامها ستحدد طبيعة المجتمع وكيف يعالج مشاكله .

وأي وسيلة جديدة ، أو امتداد للإنسان ، تشكّل ظروفاً جديدة محيطة تسيطر على ما يفعله الأفراد الذين يعيشون في ظل هذه الظروف ، وتؤثر على الطريقة التي يفكرون ويعملون وفقاً لها (الوسيلة امتداد للإنسان ، فالملابس والمساكن امتداد لجهازنا العصبي المركزي ، وكاميرا التليفزيون تمد أعيننا ، والميكروفون يمد آذاننا ، والآلات الحاسبة توفر بعض أوجه النشاط التي كانت في الماضي تحدث في عقل الإنسان فقط ، فهي مساوية لامتداد الوعي) .

وسائل الإعلام الجديدة ـ كامتداد لحواسنا ـ كما توفر زمنا وإمكانيات تشكل أيضاً تهديداً في نفس الوقت ، لأنه في الوقت الذي تمتد فيه يد الإنسان وما يمكن أن يصل إليه بحواسه في وجوده ، تستطيع تلك الوسائل أيضاً أن تجعل يد المجتمع تصل إليه لكي تستغله وتسيطر عليه .

ولكي نمنع احتمال التهديد يؤكد ماكلوهن أهمية إحاطة الناس بأكبر قدر ممكن من المعلومات عن وسائل الإعلام ، لأنه (بمعرفة كيف تشكل

التكنولوجيا البيئة المحيطة بنا ، نستطيع أن نسيطر عليها ونتغلب تماماً على نفوذها أو قدرتها الحتمية) .

ويعرض ماكلوهن أربع مراحل تعكس في رأيه التاريخ الإنساني :

١ـ **المرحلة الشفوية كلية** : مرحلة ما قبل التعلم ، أي المرحلة القبلية .

٢ـ **مرحلة كتابة النسخ** : والتي ظهرت بعد هومر في اليونان القديمة ، واستمرت ألفي عام .

٣ـ **عصر الطباعة** : من سنة ١٥٠٠ م إلى سنة ١٩٠٠ م تقريباً .

٤ـ **عصر وسائل الإعلام الالكترونية** : من سنة ١٩٠٠ تقريباً ، إلى الوقت الحالي .

وطبيعة وسائل الإعلام المستخدمة في كل مرحلة تساعد على تشكيل المجتمع أكثر مما يساعد مضمون تلك الوسائل على هذا التشكيل .

. . . وهكذا ففكرة (ماكلوهن) الرئيسية تقوم على أن وسائل الإعلام لا تنقل فقط معلومات ، ولكنها تقول لنا ما هو نوع العالم الموجود ، وهذا لا يجعل حواسنا تثار وتتمتع فقط ، ولكنها تعدل نسبة استخدامنا للحواس وتغير في الواقع شخصيتنا .

لذلك تراه يقول : (الوسيلة الإعلامية تقوم بتدليك الحواس)[١] .

ومن هنا برزت أهمية دراسة تأثير وسائل الإعلام .

ـ وكالعادة ـ انقسم الدارسون إلى قسمين يحملان أفكاراً متناقضة :

---

(١) باختصار وتصرف من : الأسس العلمية لنظريات وسائل الإعلام ، للدكتورة جيهان روتشي : ٣٧٥ـ٣٧٧ .

فالفريق الأول : رأى أن لوسائل الإعلام تأثيراً كبيراً ، فهي التي تلعب دوراً فعالاً في الحياة الاجتماعية ، وهي التي تؤثر على الاتجاهات والأفكار والسلوك ، بل إنها تجعل الأفراد يتصرفون وفق الأسلوب الذي تريده وسائل الإعلام ، كذلك فهي قادرة على زيادة معلومات الجماهير وحفزهم على ممارسة الديمقراطية والحرية ونحو ذلك. . . ، وهذا ما دفع المتحمسين لهذه الفكرة إلى القول أن سبب هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى قوة دعاية وإعلام الحلفاء!

وأن الإعلانات في وسائل الإعلام الأمريكية أصبحت عاملاً أساسياً في تشكيل أسلوب الحياة الأمريكية!

والفريق الثاني : اعتبر أن وسائل الإعلام ليست إلا أداة قد تستغل في تحقيق الأهداف الشريرة ، ولذلك حذروا منها ومن تأثيراتها ، وطالبوا بعدم تضخيم تأثيرها على المجتمعات. . . ، واستدل القائلون بهذا الرأي على ما جرى في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تبين بالوقائع العملية أن الصحافة ـ مثلاً ـ لا تمثل رأي الغالبية ، لذلك فاز الرئيس روزفلت بالرغم من وقوف الصحافة ضده وبقوة .

وفي هذا الصدد تقول الدكتورة جيهان رتشي :

. . . وباختصار ، فإن الاتصال بواسطة الرمز الهام يوفر للناس المعلومات الضرورية لتعريف عالمهم وأنفسهم داخل ذلك العالم ، فالنتيجة الأساسية والشاملة للاتصال البشري إذن هي خلق الظرف البشري نفسه .

ولوسائل الإعلام الجماهيرية دور كبير في الطريقة التي نبني أو نشيد بمقتضاها تصوّرنا للعالم خلال فترة طويلة ، والطريقة التي ننظم بها جوانب جديدة للتصور ، ونكوّن بها آراء ومعتقدات جديدة ، ذكرنا من

قبل أننا قد لاحظنا أن الواقع البشري فريد في أن نسبة كبيرة من المعلومات قد لا يمكن أن يستوعبها بعض الأفراد أو يقبلونها ، ونستطيع أن نذهب خطوة أبعد من ذلك فنقول : إن إنسان القرن العشرين فريد في أنه يتوصل إلى قدرٍ كبير من تصوره للواقع من المعلومات التي يتم نقلها إليه عن طريق وسائل الإعلام .

وبالرغم من أننا لن نضع أقدامنا على سطح القمر ، أو نشترك في حرب في أفريقيا ، أو نتعرض لعملية زرع قلب ، إلا أن وسائل الإعلام وفرت لنا المعلومات عن كل حدث من تلك الأحداث المحيطة وأصبحنا بهذا نستجيب عليها ، ولا شك أن هناك قدراً كبيراً من الحقيقة في مفهوم ماكلوهن عن وسائل الإعلام (كامتداد) لأعضاء الحس عند الإنسان ، فبفضل وسائل الإعلام أصبح البقال في المدينة الصغيرة لا يستجيب فقط وفقاً لرغبات زبائنه أو لأسعار منافسه المباشر ، بل أصبح يخطط سلوكه أيضاً على أساس معرفته باحتمال حدوث قحط في الولايات المتحدة أو إضراب عمال الموانىء في دولة أوروبية ، وتصوّر الفتاة التي تعيش في (طنطا) للموضة لا يقوم فقط على أساس ما تراه فعلاً أو ما ترتديه زميلاتها في المدرسة أو ما تجده معروضاً في محلات مدينتها ، ولكنه يقوم أيضاً على أساس ما تقوله الوسائل الإعلامية لها عن صالونات الموضة في باريس ، ومحلات لندن أو القاهرة!!

وتشير الباحثة (البرتاسيجل) إلى نموذج ممتاز وجده مخبر صحفي قام بتغطية أخبار انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٨م في المناطق القروية من ولاية (أيوا) .

فقد وجد المخبر أن المزارعين كانوا أقل اهتماماً بالموضوعات

السياسية التي تؤثر بشكل مباشر على الجماعات المحلية وأكثر اهتماماً بالموضوعات التي تملأ وسائل الإعلام الجماهيرية ، فقد طغت موضوعات المدينة على مشاكل المزارع نفسه ، فالفلاح الذي يعيش في عزلة قروية ، أصبح بفضل الرسائل التي تتكرر في وسائل الإعلام الحديثة يتحدث عن الجرائم التي تملأ شوارع المدن والمظاهرات التي يقوم بها طلبة الجامعات ، وأخبار الحرب في فيتنام التي تملأ عقول الفلاحين وليست تصوراتهم عن المشاكل المحلية .

بمعنى آخر ، نظراً لأن وسائل الإعلام تستطيع أن تقدم ، بل وتقدم فعلاً قدراً كبيراً من المعلومات عن العالم وعن أمور لا نستطيع أن نجربها بشكل مباشر ، تصبح هذه الوسائل مناسبة أكثر للتأثير لأنها تضيف شيئاً لتصورنا للواقع وتؤثر بقوة على الطريقة التي نبني بها جوانب من الظروف المحيطة التي ليس لدينا فرصة كبيرة في الحصول على معلومات من الدرجة الأولى عنها ، فمن النتائج الأساسية لمقدرة وسائل الإعلام على نقل رسائل بسرعة ، عبر مساحات كبيرة ، وقيام تلك الوسائل بتوفير معلومات ماكنا لنحصل عليها لو لم توجد تلك الوسائل ، إننا أصبحنا نتوقع أن توالي تلك الرسائل تزودنا بمعلومات عن الأجزاء البعيدة في الظروف المحيطة ، وأن توفر لنا معلومات عن العالم أكبر .

إذن :

يمكن التفصيل في قضية تأثير وسائل الإعلام ودورها في عدد من الفقرات ، أهمها :

* * *

المبحث الأول

دور وسائل الإعلام الغربي في تشويه صورة الإسلام!!

عاش الفيلسوف الفرنسي (روجيه جارودي) غالبية حياته في الأوساط الثقافية والسياسية ، وفي الفترة الأخيرة اطَّلع على الإسلام ، فاعترف أن هناك فرقاً كبيراً بين الفكرين ، وانقلب الرجل رأساً على عقب ، وراح يُدلي بتصريحات وآراء حول الحضارة الغربية وما تعانيه ، وعن الدين الحنيف وما فيه من أمورٍ مرسومة لإسعاد بني البشر ، ومن قوله في ذلك :

(لقد انتحرت الحضارة الغربية ، والسبب الرئيسي لهذا التخاذل الانتحاري أنه خلال القرون الخمسة المنصرمة لم تعد الحضارة الغربية إلحادية فحسب ، بل أصبحت تتصف بالشرك ، فالنمو والجنس والعنف والمال والقومية غدت غاياتها في ذاتها ، وبتعبير آخر أصبحت آلهة مزيفة لهذه الحضارة . . .) .

ثم جاء الأمير (تشارلز) ولي عهد بريطانيا فتحدث عن فضل الحضارة الإسلامية على الغرب ، وذلك في كلمته التي ألقاها في جامعة أكسفورد في عام ١٩٩٣م ، ومما جاء فيها :

(إذا كان الغرب يسيء فهم طبيعة الإسلام فلا يزال هناك جهل كبير حول ما تدين به حضارتنا وثقافتنا للعالم الإسلامي ، إنه نقص نعانيه من دروس التاريخ الضيق الأفق الذي ورثناه ، فالعالم الإسلامي في القرون الوسطىٰ من آسيا الوسطى إلى شاطىء الأطلسي كان يعجُّ بالعلماء ورجال العلم ولكن بما أننا رأينا في الإسلام عدواً للغرب وكثقافة غريبة بنظام حياتها ومجتمعها ، فقد تجاهلنا تأثيره الكبير على تاريخنا .

فلنأخذ ـ مثلاً ـ كيفية تقليلنا من أهمية ٨٠٠ سنة من التراث الإسلامي في إسبانيا بين القرنين ٨ـ١٥ ، فلا مفرَّ من الاعتراف بمساهمة إسبانيا المسلمة في الحفاظ على الدراسات الكلاسيكية في العصور المظلمة والانطلاقات الأولية لعصر النهضة ، ولكن إسبانيا المسلمة كانت أكثر من مخزن للحضارة الإغريقية التي التهمها العالم الغربي المعاصر إذ لم تقتصر إسبانيا المسلمة على جمع وحفظ المحتوى الثقافي للمدنيتين الأغريقية والرومانية فحسب ، ولكنها قامت بتفسيرهما والتوسع فيهما وأسهمت من ناحيتها في الجهد البشري في عدة قطاعات في العلوم والفلك والرياضيات والجبر « وهي كلمة عربية بحدِّ ذاتها » والقانون والتاريخ والطب وعلم المستحضرات الطبية والبصرية والزراعة والهندسة المعمارية والدين والموسيقى . . .

لقد رعى الإسلام وحافظ على السعي وراء العلم والمعرفة . . . وفي القرن العاشر كانت قرطبة أكثر مدن أوربا حضارةً .

. . . ثم يقول : وكثيرة هي السمات واللمسات التي تعتز بها أوربا الحالية التي هي فعلاً مقتبسة من إسبانيا المسلمة : الدبلوماسية والتجارة الحرة والحدود المفتوحة وأساليب البحث الأكاديمية في علم أصل الإنسان ، والأتيكيت والأزياء والأدوية البديلة والمستشفيات ، فكل هذه وصلتنا من هذه المدنية العظيمة ، وكان الإسلام في القرون الوسطى معروفاً بالحلم والتسامح عندما كان يسمح لليهود والمسيحيين بممارسة شعائرهم الدينية ، واضعاً ذلك مثالاً ، لم يتعلمه الغرب لسوء الحظ لعدة قرون .

إن الأمر العجب هو وجود الإسلام في أوربا كجزء منها منذ أمدٍ طويل ، أولاً في إسبانيا ثم في البلقان ، وكذلك مساهمته في حضارتنا التي كثيراً ما نعتقد خطأً بأنها حضارة غربية كلياً .

إن الإسلام جزء من ماضينا وحاضرنا في ميادين الجهد البشري ، لقد ساعد الإسلام على تكوين أوربا المعاصرة فهو جزء من تراثنا ، وليس شيئاً مستقلاً بعيداً عنا)[1] .

وهكذا خرج بعض مفكري الغرب وعلمائه فدرسوا الإسلام واكتشفوا أهم معطياته الحضارية ، من ذلك العالم الدانمركي (جوستان جرونيباوم) ، فقد قال : (. . . في ظل هذه القيم الأساسية يطرح الإسلام أسئلة جوهرية ثلاثة ويقدم إجابته عليها ، وهي :

كيف تعيش حياة صحيحة ؟

وكيف تفكر تفكيراً صحيحاً ؟

وكيف تقيم نظاماً صحيحاً ؟

. . . ولقد قدم الإسلام أجوبة على هذه الأسئلة في التربية الصحيحة للفرد ، والترتيب النسبي لمناشط الإنسان ، وتحديد القصد والمجال بالنسبة لسلطة الحكم أو ممارسة القوة السياسية ، وكذلك تبنّى الإسلام نظاماً للقيم يتناول الواجبات والحقوق في شتى مجالات السلوك الإنساني ، سواء السلوك الفردي أو السلوك الاجتماعي وعلاقات الفرد بقرابته أو بالجماعة كلها ، وقد أدى ذلك إلى تقويم أية خبرات حضارية سابقة أو لاحقة في هذا الضوء بحيث تكون متجاوبة مع معايير الإسلام ، ومقاصده)[2] .

وهكذا يتجاوب الإسلام مع كل متطلبات الإنسان ، فهو ينظر إليه نظرة احترام وتقدير وتكريم ، قال الله تعالى :

---

(١) نشرة جريدة الشرق الأوسط في عددها (٥٤٥٨) ٧ نوفمبر عام ١٩٩٣ النص الكامل لكلمة ولي عهد بريطانيا .

(٢) للتوسع يراجع : القيم الحضارية في الإسلام . محمد فتحي عثمان : ٤٣ـ٤٧ .

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

وهو يعتبره حراً في اعتقاده : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وهو الذي يرفع لواء التسامح والتعايش السلمي بين الأفراد والأمم ، حتى مع الكفرة والمشركين والملاحدة ، مصداق ذلك قول الله تعالى :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

لذلك استفاد المسلمون من جميع الشعوب وأفادوا ، حيث ترجموا العلوم وغربلوها ومن ثم نقلوا إلى الناس المفيد والنافع منها .

فهل قام الغرب بمكافأة المسلمين ؟ أم أنه انقلب رأساً على عقب ، وكان من الجاحدين ؟!

ـ ممايؤسف له ـ أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تعرّض لحملات إعلامية مشوهة ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

هذا الدين الذي قدّم لأوربا المناهج والوسائل والعلوم ، وهو الذي حافظ على كل الحضارات القديمة ، ونقلها بأمانة لا مثيل لها ، فاستفاد منها الغرب ، وتعامل مع الغربيين والمشركين وأهل الكتاب كألطف وأحسن ما تكون المعاملة هو ذاته الذي أُسيءَ إليه في كل مكان هناك ، ورسمت وسائل الإعلام صورة مشوهة له و . . . !!

وبدأت تلكم الحملات التجريحية والتشويهية منذ الحروب الصليبية ، فعلى حدِّ تعبير محمد أسد رحمه الله وهو يتحدث عن الأذى الذي جلبته الحروب الصليبية : (. . . ولم يقتصر على اصطدام استعملت فيه

الأسلحة بل كان أولاً وقبل كل شيء أذى عقلياً نتج عنه تسميم العقل الغربي ضد العالم الإسلامي عن طريق تفسير التعاليم .

والمثل العليا الإسلامية تفسيراً خاطئاً متعمداً ، لأنه إذا كان للدعوة إلى حملة صليبية أن تحتفظ بصحتها فقد كان الواجب والضروري أن يوسم نبي المسلمين بعدو المسيح ، وأن يصوّر دينه بأكلح العبارات كينبوع للفسق والفجور والانحراف عن الحق ، وفي أيام الحروب الصليبية ذاتها تخللت العقل الأوربي وبقيت فيه تلك الفكرة المضحكة القائلة أن الإسلام إنما كان يدعو إلى عبادة الشهوة وإلى القوة الوحشية!!)[1] .

ثم كانت حركة الاستشراق ، حيث جُنّد لهذا الغرض أناس تفرَّغوا لدراسة لغات الشرق وأديانه والحياة الاجتماعية و. . . .

ولم تكن الحركة الاستشراقية أقل حقداً وتحيزاً من مثيلتها من الحركة الصليبية ، بل لعلها أخبث وأكثر تأثيراً ، حيث استطاعت تشويه حقائق الإسلام ، حتى جعلت المواطن الغربي يكّون صورة سيئة عن الدين الإسلامي ، فهو دين الجهل والتخلف ، وهو الذي يدعو إلى البدائية والأمّية ، وهو الذي يحارب الثقافة والعلم ويدعو إلى مزيدٍ من الشعوذة والسحر والغيبيات وهو. . . ، حتى إن بعض المستشرقين أعلن ذلك بشكل صريح :

كالمستشرق الفرنسي (فولني) قال : إن الله جعل محمداً وزيره في الأرض ، وأعطاه العالم ليخضع بالسيف كل من يرفض الاقتناع بقانونه ، وبالتالي فهو لا يعظ إلا بالقتل والمذابح!![2] .

---

(١) للتوسع يراجع : الطريق إلى الإسلام : ٣٢ـ٣٣ .

(٢) للتوسع في ذلك يراجع : أوروبا والإسلام ، هشام جعيط : ٣٤ـ٣٧ .

وكالمستشرق (سيمون أوكلي) والذي وصف رسول الله ﷺ وصفاً يدل على الحقد والتعصب ، فقال : إنه رجل خبيث جداً وماكر ، وأن ما يُبديه من شمائل طيبة كانت مجرد أمر ظاهري يخفي وراءه حقيقة نفسه التي كان يحكمها الطموح والطمع ! ![1] .

ثم كانت الصورة المعاصرة التي يصوغها الإعلاميون والسياسيون عن الإسلام .

وهي لا تقل حقداً وتجريحاً وتشويهاً بالإسلام عن مثيلاتها : حركة الاستشراق والحركة الصليبية .

بل إن وسائل الإعلام الغربية المعاصرة تمكنت من النجاح في هذه المهمة القذرة ، وذلك عن طريق سرعة انتشارها وتطورها وتحكمها العالمي .

وهنا يكمن الدور الخطير الذي يقوم بها الإعلام الغربي في تشويه صورة الإسلام .

وقد قام (جاك شاهين) بدراسة مئات الكتب ، ومتابعة الأفلام والمسرحيات و... الأمريكية ، ولاحق مدى تأثيرها على المواطن الغربي . والدور الخطير الذي تقوم به في رسم صورة مشوهة للإسلام . ثم أعطى ملخصاً لما توصل إليه ، فقال :

(دلَّت أبحاثي على أن كلمتي « عربي » و « مسلم » تثيران ردود فعل عدائية يصعب معها على الجمهور أن يميز الحقيقة من الخيال ، وربما لم يتعرض أي شعب في العالم نتيجة ذلك إلى هذا المدى من سوء الفهم كما يتعرض الـ ٢٧٠ مليون عربي ، كما قد يكون الإسلام ، الذي يعتنقه

---

(١) للتوسع يراجع : الاستشراق ، الدكتور محمود زقزوق : ٤٥ـ٤٦ .

ما يزيد على بليون إنسان بينهم ٦ـ٨ ملايين أمريكي ، أكثر الأديان معاناة من جهل الآخرين بحقيقته) .

ويشير (شاهين) إلى أن (هوليود) وهي مدينة السينما الأمريكية قدَّمت منذ حرب الخليج ما يزيد على ٤٠ فيماً ، منها (لعبة القتل) و (نينجا الأمريكي والإبادة) و (في الشمس) و(الدرع البشري) و. . . .

وغالت هذه الأفلام كلها في تشويه سمعة العرب ، إذ عرضت شريطاً لا ينتهي من الصور التي يبدو فيها العرب أشبه بشعوب منقرضة لشدة تخلفهم ، ويمثلون في الوقت ذاته خطراً رهيباً يتهدد الآخرين ، ولم تروح مشاهدها الوهاجة المتكررة عن أنفس الجمهور ببراءة ، بل وجهته إلى كراهية هذا ومحبة ذاك ! !(١) .

وهكذا تنطلق على شاشات وسائل الإعلام الغربي صيحات التحذير من زحف الإسلام الهمجي ، ومن منافسته الرهيبة لكل ماله علاقة بالتقدم والحضارة والرقي ، ليرتسم في صورة الغربي الصورة القاتمة عن الإسلام الحنيف ، ولعلَّ السبب الرئيسي لهذا العداء المصطنع يعود إلى مسألة تاريخية. . . ، لذلك لما دخل الجنرال (اللنبي) مدينة دمشق عام ١٩١٨ توجه إلى قبر القائد صلاح الدين الأيوبي ، ثم وقف عليه وركله بقدمه ، ثم قال : ها نحن عدنا يا صلاح الدين ! !

إضافة إلى الأطماع السياسية والاقتصادية ، خاصة أن الدول الإسلامية وخاصة العربية تمتلك المناخ الملائم والسياحة والموقع الجغرافي و. . البترول والثروات المائية وغيرها. . .

لذلك فإن على العرب والمسلمين قاطبة ـ وكلٌّ حسب مواهبه

---

(١) حرب الخليج ، منشور في جريدة الحياة ، عدد (١٠٩٨٩) ١٤/٣/١٩٩٣ .

ومقدراته وموقعه ـ أن يتحرك في سبيل مواجهة هذه الحملة الشرسة التي تتعرض لها صورة الإسلام المشرقة : من تشويه وتجريح وبنحو ذلك .

وخاصة من له علاقة بالإعلام ، ليكون الإعلام الإسلامي هو الحامل لفكرة صناعة الصورة البديلة ، وذلك من خلال التأكيد على إبراز الصورة الناصعة للإسلام ، من خلال الرجوع إلى القرآن والسنة ، والتأكيد على فكرة ما يقوم به بعض الأفراد من تفجيرات أو اغتيالات أو . . . ، أو ما تقوم به بعض الجماعات الإسلامية ـ كحركة طالبان الأفغانية ـ من منع المرأة من العمل والتعلم و . . . هذا ليس من الإسلام ، إنما الإسلام هو ما كان عليه الرعيل الأول من هذه الأمة . . .

والأمل في الشباب الواعي المتنوِّر . . . والذي يقرأ قوله تعالى : ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : ٢٦] .

المبحث الثاني

دور وسائل الإعلام الإسلامي في نشر الدعوة إلى الله تعالى

هناك آيات قرآنية صريحة بأن هذا الدين الحنيف عالمي ، فلا هو يختص بالعرب ولا بالمسلمين ، بل بكل العالمين ، ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى وهو يخاطب النبيَّ الخاتم ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

وعندما فهم الرعيل الأول هذه الخاصية للدين ، انطلقوا من الجزيرة العربية يحملون لواء الدعوة إلى الله لكل أصقاع المعمورة .

لكن الذي اعترض مسيرتهم الدعوية طغاة ذلك الزمان ، والمتمثلين بكسرى وقيصر ورستم و . . . ، وشهروا في وجوههم الأسلحة ، وصمد

المسلمون صموداً لا مثيل له ، ولم يكن هدفهم من ذلك الحرب لذات الحرب ، ولا ـ كما يدعي بعض المستشرقين و. . . ـ الغنائم ولا مناظر الدماء والقتل ، إنما كان الهدف : دعونانوصل رسالتنا إلى الشعوب ، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وبالفعل استطاع المسلمون الأوائل الوصول إلى الصين والهند وإسبانيا ومشارق باريس ، وأصبحت لهم دولة لا تغيب عنها الشمس .

لكن دار الزمن دورته وابتعد المسلمون عن دينهم الحنيف. . . وكان ما كان .

بدأت مقاطعات من جسد الأمة تسقط هنا وهناك. . وانحسر المدُّ الإسلامي وتخلَّف المسلمون عن ركب الحضارة حتى أصبحوا في آخر الركب!!

ووصلنا إلى هذا العصر ، فهل نقول : إنه لا سبيل إلى نشر الدعوة إلا بالأسلوب نفسه الذي سار عليه الأقدمون ؟!

وهل نعود لنحمل السيف ونركب الفرس ؟

أبداً ، فمن الخصائص العامة للإسلام المرونة والتطور ، عرف ذلك من عرف وجهله من جهل ، وقد أصبح من الأمور المؤكدة أن أهم وسيلة لنشر أي دعوة من الدعوات هي وسائل الإعلام .

فعن طريق إذاعة هادفة مسلمة نستطيع بثّ آيات من القرآن مع تفسيراتها ، وأحاديث نبوية وما يُستفاد منها ، والأحكام الفقهية المتعلقة بالفرد والجماعة و. . . .

وهذا لا يكلف تضحيات بالأنفس ، ولا أسلحة متطورة ولا . . . ، إنما يتطلب شراء آلات البث ، مع كادر متدرب ناجح .

وعن طريق امتلاك محطة ـ أو محطات ـ فضائية نستطيع إدخال الدعوة إلى الله إلى كل بيت ـ مسلم وغير مسلم ـ وبالتالي فإذا تطور الأمر فعلينا امتلاك قنوات تخاطب الآخرين بلغاتهم ، ولعل هذا أنجح أسلوب معاصر من أساليب الدعوة إلى الله .

فعن طريق هذا الأسلوب نستطيع تبليغ الدعوة إلى الأمريكان ـ مثلاً ـ وإلا فكيف يمكن الوصول إلى الشعب الأمريكي لإبلاغه دعوة الإسلام ؟

هل ننتظر حتى تضعف أمريكا وتتمزق ، ونقوى نحن ونتحد ؟

هل ننتظر المهدي ليُقيم دولة العدل في الأرض ؟! . .

وهذه مهمة الأغنياء ـ وما أكثرهم في بلادنا العربية والإسلامية ـ ومهمة الإعلاميين ، ومهمة المفكرين . . .

وإلا ، فأيهما أفضل : ذهاب مسلم إلى الحج (١٧) مرة ، ودفع الآلاف كل عام ، مع عدد كبير من (العمرات) ، أو إشادة مآذن عالية ، أو تشييد مساجد وزخرفتها زخرفة ما أنزل الله بها من سلطان ، أو ما إلى هنالك .

أم امتلاك محطات تلفزيونية وإذاعية لنشر الدعوة إلى الله تعالى ؟!

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة : ١٩] .

لكن : أين . . . أين المسلمون ؟ !

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماءُ فوق ظهورها محمولُ!!

المبحث الثالث

دور وسائل الإعلام في التغيير الاجتماعي.. والتنمية

يرى بعض الباحثين أن وسائل الإعلام لا علاقة لها بالتنمية والتغيير الاجتماعي إلا في مجالات ضيقة جداً ، معتبرين أن العوامل الاقتصادية هي العوامل الهامة والحقيقية في عملية التنمية ، وأما التنمية والتقدم الثقافي والتعليم والاستقرار السياسي ونحو ذلك فلا علاقة لوسائل الإعلام بها .

بل هناك من ذهب إلى أبعد من هذا ، فاتهم وسائل الإعلام بأنها تأخذ وقت الجماهير في أمور تافهة غير مهمة ، وذلك من خلال الإثارات والدعايات و . . . وبهذا فهي تعطل البرامج التنموية .

وفي الطرف المقابل هناك رأي معاكس تماماً ، يركز على الدور الحاسم والبنَّاء لوسائل الإعلام في تحقيق الرفاه والسلام والتقدم ، ويستدلون على ذلك الدور بعدة أمثلة من الواقع ، منها أن المذياع يعتبر من أهم مصادر المعلومات عند الفلاحين الأمريكيين ، حيث بينت تجربة ميدانية قام بها العالم (سبكتر) أن للراديو تأثيراً كبيراً في الممارسات الصحية والعادات ، بل وحتى في القضايا ذات العلاقة بقرار الإنسان .

لكن المتحمسين لهذا الاتجاه يرون ضرورة ربط وسائل الإعلام بهيئة متطورة تقوم بدور التأثير التوجيهي للآخرين ، وذلك بهدف تحقيق التنمية والتغيير الاجتماعي .

وهناك رأي ثالث يُطلق عليه الاتجاه الحذر لتأثير وسائل الإعلام على عملية التنمية والتغيير الاجتماعي ، حيث يرى أصحاب هذا الاتجاه أن

الرسالة الاتصالية لا تؤثر بشكل مباشر على الجماهير ، إنما لا بد أن تسير في مرحلتين هما :

أولاً : من وسائل الإعلام إلى قادة الرأي .

وثانياً : من قادة الرأي إلى الجماهير .

أي أن تصل الرسالة الإعلامية بشكل غير مباشر إلى الجماهير ، لكن عن طريق أصحاب القرار وقادة الرأي .

لكن يمكن التأكيد على مسألة الزمان والمكان ، فلا نستطيع أن نقول إن وسائل الإعلام لها الدور نفسه في أمريكا وإفريقيا ـ مثلاً ـ .

فهناك أكثر من ثلاث عشرة دولة إفريقية لا توجد فيها صحافة يومية على الإطلاق!!

أما في الدول الأمريكية فحدِّث ولا حرج عن أعداد الصحافة و . . .

فكيف يكون لوسائل الإعلام دور في نقل مجتمع إفريقي ـ مثلاً ـ من حالة إلى حالة أو من مستوى إلى مستوى آخر ، وهو لا يملك أقل أنواع وسائل الإعلام ؟

ذلك لأننا نرى حقيقة بارزة للعيان وهي توحي بمدى دور وسائل الإعلام في تكوين المعرفة والوعي الاجتماعي ، مثال ذلك أن الأستاذ الجامعي له تأثير على عدد لا بأس به من طلابه ، وأما رجل الإعلام ـ كالصحفي مثلاً ـ فله دور أكبر من خلال تقديم خبر ما إلى ملايين المشاهدين أو المستعمين أو القرّاء ، ومن خلال ذلك يتكوّن الرأي العام ، سواءً كان ذلك متعلقاً بتكوين عادة أو النفور من أخرى أو اتخاذ موقف من قضية معينة ، وهكذا . .

وينقل الدكتور صقر قول العالم (توفلر) ويعلق عليه : (إن الثورة الإعلامية التي نعيشها اليوم هي التي تحدد مسار التطور البشري ، . .

ويورد معلومات ليؤكد وجهة نظره فيقول : إن الكتابة لم يعرفها سوى السبعين جيلاً الأخيرة من الأجيال الكثيرة جداً من الناس التي عاشت على الأرض ، كما أن الناس لم يعرفوا الكلمة المطبوعة إلا خلال الأجيال الستة الأخيرة ، والأجيال الأربعة الأخيرة فقط هي التي تعلمت قياس الزمن بدقة ، كما لم يستخدم الكهرباء سوى الجيلين الأخيرين من الناس ، والجيل الحالي وحده يستمتع بخدمات الإذاعة والتلفزيون على نطاق واسع ، وهكذا نكون أمام وضع خاص يتمتع فيه الجيل الحالي من البشر بحجم هائل من المعلومات تفوق كل ما كان لدى الأجيال السابقة ، فالناس لم تعد تجتمع في الساحة العامة كما كانوا يفعلون في أثينا وروما ليحصلوا على الأخبار والتعليمات ، بل إن الملايين تستطيع أن تتجمع كل لحظة حول أجهزة الإذاعة والتلفزيون وأعمدة الصحف لتعرف كل شيء في هذا العالم وبأدق التفاصيل ، لذلك عندما يُقال إن العالم أصبح قرية صغيرة ، فإن هذا القول ليس مبالغاً فيه ، مما يعني في الوقت نفسه أن كل إنسان معاصر لا يستطيع أن يعيش حياته المعاصرة دون وسائل اتصال .

وبذلك أضحى الإعلام كمثل الهواء والنور بالنسبة إلى بني البشر المعاصرين ، ومن هنا برزت الدعوات لإعطاء الناس كل الناس الحق في الحصول على المعلومات وصدرت الاتفاقيات الدولية القاضية بحرية تدفق المعلومات ، وأخذت منحىٰ أن الديمقراطية ليست في صناديق الاقتراع ، بل إن الديمقراطية هي في حرية وسائل الإعلام وممارسة للنقد من خلالها وإتاحة ذلك لشرائح المجتمع المختلفة)[1] .

ولا بدَّ من الالتفات إلى مسألة مهمة ، وهي أن الإنسان بطبيعته لا يرث ثقافته إنما يكتسبها من بيئته والآخرين الذين من حوله .

---

(١) الإعلام العربي : ٣٢ـ٣٣ .

لذلك يكون لوسائل الإعلام الدور التوجيهي لاكتساب المعارف والثقافة وما يحيط بالإنسان من مجريات الأمور ، فالتغيير الذي يحصل في أي مجتمع لا بدَّ أن يبدأ بعقول الأفراد ، فإذا كانت وسائل الإعلام موجهة نحو تحضير الأفراد لتلقي عمليات التغيير تلقِّيا مدروساً هادفاً ، فإن ذلك سيكون له تأثير كبير ، وإلا كان العكس تماماً . وكذلك في مسائل التنمية ، بحيث يكون لوسائل الإعلام الدور الكبير في تحضير الناس وتهيئتهم لتقبّل مسألة التخلص من التبعية الاقتصادية و. . . للأجنبي ويكون ذلك ببث ـ عن طريق وسائل الإعلام ـ قضايا الاعتماد على التخطيط السليم ، وتشجيع الإدخار ، والاستغلال الاقتصادي .

وبمعنى آخر : إن على وسائل الإعلام أن تلعب دوراً كبيراً في النهوض بمستوى الشعوب لا لتحقيق الأرباح فقط ، بل إلى كل جوانب التنمية الشاملة ، وخاصة في مراحل التخطيط للتنمية ، ثم في مراحل بدء تنفيذ الخطط ، ثم في مراحل المراقبة ومحاسبة المقصرين .

وما أحوج الدول النامية إلى عمليات التنمية ، لأن هناك فوارق كبيرة بين الدول النامية والدول المتقدمة ، فمن حيث توزيع الدخل ـ مثلاً ـ هناك تفاوت مخيف ، فمتوسط نصيب الفرد في دولة نامية لا يتعدى (٥٠) خمسين دولاراً ، بينما يصل نصيب الفرد في أمريكا إلى أكثر من (٢٠٠٠) ألفي دولار ، أي حوالي (٣٦) ضعفا!!

كذلك فإن : نصيب الفرد من الصحف في الدول المتقدمة يختلف اختلافاً بيِّنا عما هو عليه في الدول النامية ، فنصيب كل (١٠٠٠) شخص في اليابان (٤١٦) صحيفة ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية (٣١١) صحيفة .

بينما لا يزيد نصيبهم في دولة الباكستان عن (٥) صحف ، ولا يزيد في النيجر عن (٣ر٠) من الصحيفة!!

أجل!

فوسائل الإعلام لها دور كبير في العملية التنموية وفي التغييرات الاجتماعية ، وحتى في المجالات الأخرى .

ففي عام ١٩٩١م بلغت صادرات الولايات المتحدة من المواد الثقافية (مجلات وكتب وأفلام وبرامج تلفزيون و. . .) (٦٠) مليار دولار ، أي ما يقارب قيمة صادرات السلاح ، فماذا عن صادرات الدول النامية من المواد الثقافية ؟!!

* * *